

الحسّ المأسوي في المجموعة القصصية "حواس زهرة نائمة" لـ سامية غشير

د. سامية كعوان

جامعة باجي مختار - عنابة -

ملخص:

تميزت القصة القصيرة المعاصرة في الجزائر بمواضيع مختلفة دلت على وعي الكُتّاب بواقعهم من خلال التجديد في نمط السرد، وقد اخترنا المجموعة القصصية "حواس زهرة نائمة" لـ سامية غشير موضوعاً للدراسة حيث تتجلى المأساة عبرها من خلال عناصر متنوعة. وتهدف الدراسة إلى إبراز خصائص السرد من جانب الحسّ المأسوي الذي ميّز واقع الحياة في ظل التطور الحضاري السريع، وقد دلت عليه عدة مؤشرات ورموز.

Abstract: The contemporary short story in Algeria was characterized by different themes that showed s awareness of their reality through the renewal of narrative style. We chose the collection of the book by Samia Ghassir as a subject for study. The study aims to highlight the "Sleeping Flower Hugs" characteristics of narration by the tragic sense that characterized the reality of life in the light of rapid .civilizational development, and has been shown by several indicators and symbols

مقدمة: تغير نبض السرد في القصة القصيرة المعاصرة، في ظل التطور الحضاري المرفق بتسارع الأحداث، فغالبا ما أصبحت القصة القصيرة نصا يعكس واقع الذات بسلبياته وإيجابياته، فالمأساة من أهم المواضيع التي عالجتها الآداب بمختلف أنواعها وذلك عبر جميع العصور، كما أن القضايا التي عالجتها القصة القصيرة في الجزائر لا تخلو من نبرات الحزن والخوف، فالقلق الوجودي ينازع فرحة الإنسان أينما حلّ. ومن خلال قراءة

المجموعة القصصية "حواس زهرة نائمة" للكاتبة الجزائرية سامية غشير رأينا طغيان الحس المأسوي على

نصوصها، ذلك ما دفعنا للتساؤل: ما هي تجليات الحس المأسوي في "حواس زهرة نائمة"؟

يتجلى الحس المأسوي عبر هذه المجموعة القصصية بصورة مكثفة وذلك من خلال عدة عناصر أهمها

الوجع والعنف.

1- **كتابة الوجع:** تميز النص القصصي عند الكاتبة سامية غشير بلغة شعرية تُبَدِّد الحياة على أوجاع

الحلم والأمني، إذ أصبح فضاء الحياة مأسويا، فالحدث القصصي فيه الكثير مما يدل على المأساة، أما

بالنسبة لأحاسيس الشخصيات فكانت حزنا تمازجت ألوانه، وقد تجلى الوجع في المجموعة القصصية عبر

تيمات مختلفة يمكن إجمالها في إخفاقات متعددة لمجالات الحياة، حيث نجد وجع الذات بصورة مكثفة

لمشاعر البؤس وذلك من خلال:

- **سيميائية العنوان:** يمثل العنوان عتبة مهمة تساعد المتلقي في إدراك دلالة النص، "إن العلاقة بين النص

والعنوان علاقة جدلية يحيل كل منها على الآخر، فالعنوان نقطة ارتكاز أساسية تسمح بفهم الخطاب وتقود

إلى تأويله"¹، وعنوان المجموعة القصصية (حواس زهرة نائمة) اسمية ثلاثية التركيب تؤكد اعتلاء كل ما

يحمل صفة السكون والسلب، ومن خلاله تتأنس الزهرة بصورة العدم، لقد جرّدتها الكاتبة من حق الحياة

بفعل النوم، والنوم موت مؤقت اختارته الكاتبة للهروب من الواقع بمفارقة منحت عبرها الحياة للزهرة من خلال

الحواس وفي السياق نفسه جرّدتها منها بفعل النوم.

يتجلى الوجع في عتبة العناوين الجزئية، التي تأتي مكتملة لما حققه العنوان الرئيسي، فالعنوان يمهّد

لمحتوى النص بصورة رمزية، و"العنوان لافتة دلالية ذات طاقات مكتنزة، ومدخل أولي لا بدّ منه لقراءة

النص. "2 ومن خلال عنوان القصة: (أحلام تنوح في ضبابية الوجع)، نجد تكثيف الوجع عبر لغة انزياحية، فالأحلام إخفاقات وتيه دروبها مبهمة، والوجع له ضبابيته، فبنية العنوان تدل على مأساة الحلم.

- دلالة صورة الغلاف: تتجسد مأساة الذات من خلال عتبة غلاف المجموعة القصصية، المتمثل في صورة جزئية لامرأة في حالة يرثى لها، يحمل وجهها تشوهات غطت جمالها، هي امرأة في حالة حزن وفزع ووجع وخوف. إضافة إلى الألوان القاتمة التي تعكس نفسية هذه المرأة، وكلها مؤشرات تحمل دلالة الشقاء، وهذا ما غلب على مواضيع القصص التي شملتها المجموعة، حيث نجد حضور المشاعر السلبية نتيجة القهر الذي تتعرض له الشخصيات، إذ نجد الوجع بكثرة يتلبس بمعظم شخصيات القصص، وتكرر لفظة الوجع ومشتقاتها كثيرا عبر نصوص المجموعة.

- الإهداء وفضاء الوجع: يعدّ الإهداء عتبة مهمة في الدراسات الحديثة، لها دلالة خاصة، فالإهداء يمثل أحد الرموز التي تساعد في إدراك دلالة اللغة ضمن النص القصصي، كما يفصح عن الرؤية العامة التي يتوخاها الكاتب. وقد مثلّ الوجع بنية مهمة في عتبة الإهداء؛ تقول الكاتبة:

"لكل زهرة لا تزال تغرس حواسها في دنيا الوجع"3

إن مأساة الوجع تمثل فضاء واسعاً يحدده الإهداء، إذ لا نجد حضوراً لأشخاص أو أمكنة أحببهم الكاتبة، كما هو مألوف لدى الكتاب، مما يجعل الإهداء يحقق رمزية خاصة، هي كلمات تنفتح على واقع متعدد اختارت له الكاتبة لغة الرمز وذلك من سمات السرد الحداثي، ومن خلال تفكيك الإهداء نجد:

- الزهرة/ رمز الذات، تمثل صدى الإنسان والحياة.

- لا تزال/ زمن الوجع، وهي لفظة لها معنى التقاطب بين الانقطاع والاستمرار بالنسبة لفعل الغرس.

- الدنيا/ فضاء شمولي، يدل على اتساع الوجد.

- الوجد/ مأساة الذات، يتجسد بمختلف الأشكال كالعنف الجسدي والنفسي، الموت، الحزن، اليتيم...

كما يبدو التمزق على ذات الكاتبة من خلال تشظي الكتابة فالاسم المرفق بالإهداء (سا..مي..ة) تجزأ إلى مقاطع صوتية من خلال نقاط الحذف بما يرمز لسلب الذات، وفي ذلك تعبير عن كسر التطلعات والآمال والأحلام، بدل ما يعنيه الاسم (سامية) لغة من سمو ورفعته.

- مدخل النص: وفي قصة "ستائر غرامية" تؤكد سامية غشير حقيقة الوجد بلغة تناصية مع الشاعر كويتزي وقد عمدت الكاتبة إلى وضع مدخل لقصتها تمثل في القول: "الأم حقيقة، وما عدى ذلك خاضع للشك"⁴ فالأم دال الوجد، ووحده لا يخضع لمبدأ الشك، وهذا القول يمهّد لدال الوجد ضمن النص القصصي وهو ذو بعد مأسوي.

- المأساة وخطاب الوجد: في مطلع قصة "حواس زهر نائمة" تمهد الكاتبة للتعريف ببطلنة القصة بلغة الوجد والحزن حيث يتجلى البعد المأسوي من خلال تمسك الكاتبة بالوجد إذ تقول على لسان بطلنة القصة "نضال": "الوجد هو أنيسي في رحلة حياتي المليئة بالعثرات والجراحات التي كانت تتناسل يوميا على ضفاف روجي، وحرائق الدهر تشعلني مرارة وخسائر. حياتي كانت أشبه بالعدم وهو يغرس فيّ سهام ندوب الوجد التي مكثت أكثر في خوالجي المهشمة، لم ينفعني وقود الأمل في أن أمتطي بساط السعادة الذي نسجته منذ سنين في مملكة رغباتي الأنثوية"⁵. فهي تنفرد للوجد، ولا تجد غيره يخفف من همومها.

تعاني الشخصيات عذابا اختلفت أسبابه فبالنسبة للمرأة نجد: الإهمال والعنف من طرف زوجها وحماتها، تقول "نضال": "كانت أمه تتكد عليّ حياتي، تخرجني بتساؤلاتها المحرجة (...). كانت أسئلتها الجارحة تعطب

كرامتي، عرضتني على عدّة أطباء لكن دون جدوى، لقد حكمت عليّ والدته بالعجز في أن أصير أمًا يوما ما، لقد أقنعت ابنها بأن يطلقني"6 .

وفي المقابل نجد أب الزوج هو من يتعاطف مع حالة "نضال" ويقرّ بكون ذلك من حكم الله ومع الوقت سيرزقهما الله، وبشأن هذا تقول: "أما والد زوجي فكان يقف معي يمسخ دموعي المنهمرة كالشلالات: لا تبك يا ابنتي، غدا سيكون يوم جديد، ستتصلّح فيه جميع الأمور، لا تبك."7 وهكذا عرضت الكاتبة لنماذج مختلفة من الشخصيات اختلفت من خلالها المواقف، فالمرأة قد تكون ظالمة، وقد تكون مظلومة وليس الرجل وحده مصدر تعاسة الحياة بالنسبة للمرأة. وذلك غوص في القضايا الاجتماعية من خلال الكلمة المبدعة، والقصة القصيرة بالإضافة إلى الرواية، هي التي تحدد جوهر المشكلة الاجتماعية، باعتبارها أكثر الأشكال الفنية الإبداعية، إمكانية وقدرة على قولبة وتكثيف تلك المشاكل وعرضها بصورة مقبولة تجد استجابة لدى القارئ، الموجهة إليه بالدرجة الأولى."8 وتتوحد ذات الكاتبة مع الوجد في قصة "حواس زهرة نائمة" لأنّ البطلة "نضال" تقترن حياتها بالوجد والعذاب. وفي حالة يأس قالت: "أنا والوجد صرنا أكثر توحدًا في خرائط الجرح"9 .

في قصة "همس الحرير" كانت الأرض أيضا لها مأساتها، فالأرض التي تركها الأب "محمد" أمانة لأبنائه تصرخ بفعل الضياع لتقول لـ"جهاد" الابن الذي هجر أرضه إلى باريس: "يوم هجرتني أيها الفارس لبست روحي رداء الفناء والحداد، وتاهت في مدن العشق مشرّدة تبحث عن فرحة أسرت في زنازة الهجرات، لم يبق في مواجهي غير دماء الحسرة تسري في تجاويتي وقناديل حبّ مسائية تنوح على أطلال الحرمان، أيتها الروح الساكنة درر عشقي تعالي وأنيري شرفات عطري، والبسني من جديد، أنا هنا في موعد الانتظار أتفعمّ في

عتمة الذاكرة."10 فالأرض ذاكرتها أهلها، وأهلها لا ذاكرة لهم خارج حدود أرضهم، وفي ذلك رؤية لقيمة الأرض والوطن.

وفي قصة "ستائر غرامية" تقول الكاتبة: "نظرت إلى الأرض فوجدت ورقة خريفية مرمية على فواصل الوجد المهموم، تأملت فوضى الحروف المتصارعة التي أنبأتها بتذكرة السفر الأخير."11 تتطابق الأرض مع الذات الإنسانية وتصبح رمزا لها.

في قصة "أحلام تنوح في ضبابية الوجد"، تعلن الكاتبة أن ما تسرده لنا، يدور في فلك الوجد فتقول: "هي حكاية أحلام تنوح في ضبابية الوجد، وحدها شواطئي كانت تسمع مناجاتهم الحزينة وهي تعاتبني؛ لأنني منحتهم تذكرة العبور إلى متاهات النهاية، سأروي لكم اليوم حكاية من ذاكرتي الموجعة التي لازالت تنثر في خوالي موسيقى الجرح والندم."12 فالأحلام ذاكرة الوجد تنسج خيوط مأساة حسية، تتشكل من خلالها حكاية أرخت للجرح والندم.

وبلغة الشعر ترسم الكاتبة نهاية لأحلام انطفأ وهجها قائلة:

"وريح الأمنيات الهاربة

ترتل أنين الجرح

وتدفعني لأمسيات غابرة

وجنون لهفة مغامرة

وتمنحني متاهات الخطوب

آخر ضحكات الهروب

وفاجعة حلم تماهى في الغروب"13

يحمل هذا المقطع القصصي شعور الحزن، وقد اختارت الكاتبة المساء والغروب زمن نهاية الحلم وإدراك الفاجعة، كما جعلت من متناقضات المشاعر مشهدا شعريا مبني على الصورة الفنية، التي زادت من جمالية اللغة.

وفي قولها:

"وهشاشات شغف يسيل

على وريد حلم مبتلّ

فاجعة أخاديد الشوق

الذي تراخى للأفول

وعثرات فراشات

في رذاذ الزهر تنسلّ."14

تصبح الفاجعة متلبسة بكل ما ينعش الشوق، فلا تجد الفراشات في فضاء الأفول إلا الهزيمة، وبلغت الرمز تبقى الفراشات أحلام مبددة على أرض الفجيرة والأخاديد ممرّات بلا نهاية.

2- العنف والحس المأسوي: يتجلى العنف في المجموعة القصصية بأشكال مختلفة منها:

أ- **عنف ضد المرأة:** ينتج العنف بسبب تسلط أحد الأطراف، وذلك مبني على دوافع مختلفة ومنها:

سلطة الزوج: ساهمت سلطة الزوج في ظهور العنف ومن ذلك نجد الضرب الذي تتعرض له "نضال" من طرف زوجها "عمر" فنقول: "يضريني بوحشية مريرة حتى بدت آثار تعنيفه على ملامح وجهي وروحي...". فأشعر أنني كحمامة عذراء أهدمت في منفى ضبابية الوحل، فأرتحل بمواجعي المنمقة بنفحات زعفران الروح. "15 فالعنف هنا بصورتيه المادية والمعنوية يصبح مأساة تعيشها الشخصية القصصية لأنّ حياة البطلنة تحولت إلى جحيم.

وتقول: "مرت سنة كاملة أذاقني فيها ألوان العذابات، كانت حياتي ملوّنة بالفجيعة، حتّى العمل حرمت منه، كانت روحي مثقلة بنبض الانهيار، كنت يومياً أكّس دموعي في محبرة ألملم فيها شغاف أنوثتي التي صلبت وترملت. "16 فالمرأة هنا مظلومة، مقهورة، مسلوقة الحقوق تعيش في دوامة الحزن. ورغم طلاقها من عمر وزواجها مرة ثانية من جمال إلا أنّ الموت وقف حاجزاً بينها وبين سعادتها، وذلك من خلال اغتيال "جمال"، فهذا الرجل كان يحمل دلالة السعادة كونه ألغى تعاسة الحياة عند "نضال" وبدّد إحساس المأساة التي عاشتها، لولا أن رياح الغربة غيرت من سعادتها واكتملت مأساتها بغربة الموت، "لقد توفي في الانفجارات الإرهابية. "17 وذلك في طريق عودته إلى أسرته. إنّ مأساة القصة تتجاوز ما هو ذاتي وفردى، لترمز إلى المأساة الجماعية، "وعندما تصبح القصة رمزية في وضوح، تتجاوز أن تكون مجرد متعة أو تسلية أو غطاء للواقع، وإنما تصبح في هذه الحالة، تجسماً للواقع نفسه. "18

في قصة "أوراق من ذاكرة الحياة" تتعرض الزوجة "سماح" إلى العنف الجسدي فزوجها "سعيد" سكير يضرّبها كل يوم دون سبب.

سلطة الأب: من نماذج سلطة الأب نجد محاولة الأب "سعيد" تزويج ابنته من شيخ ثري غير آبه برغبتها في الدراسة إلى يوم "لمحت نور" على طاولة كتب "إشراق" ورقة وقرأتها بسرعة: "أمي، أبي، إخوتي إياد ونور أعلم أن فقدانكم شيء يعذب روحي ويرهقها، لكن الحياة خطت قصة بدموع أهاتي. لا أستطيع أن أتخلص من أحلامي وأمنياتي من أجل الزواج، سامحوني".19. فالسلطة الأبوية المبالغ فيها لها نتائج وخيمة على الأبناء، خاصة بالنسبة لفتاة في مقتبل العمر تطمح في الذهاب بعيدا في المجال العلمي فتجد الأب يقف حاجزا بينها وبين أمانيتها، والانتحار ظاهرة لها حضورها في المجموعة القصصية، إنها مأساة تحدث كرد فعل للواقع المر الذي تعيشه شخصيات القصة.

- **سلطة الابن:** نجد العنف في قصة "حكاية الليل" من خلال القتل الذي تعرّضت له أم البطلة نوران من طرف ابنها وهذا العنف يختلف من حيث طبيعته، إذا يأتي نتيجة موجة غضب عارمة، فهذا الابن لم يحتمل تصرفات أمه التي عصفت بمبادئ الدين وقيم الأسرة وشرفها، فكان القتل رد فعل رسم نهاية لتصرفات الأم ولحياتها.

ب- أمكنة العنف:

- **الشارع مكان العنف:** يتجلى العنف في قصة "أحلام تنزف في صمت" من خلال قول الراوي وهو بطل القصة (إسحاق): "تدخلت لحل الخصام بينهما وبينما أنا أحاول أن أنزع السكين وقعت جريمة القتل، فرّ المجرم هارباً، أما أنا فحملت السكين في يدي وأثار الدماء تتسلل إلى يدي وصدري، وفجأة مرّ الناس من هناك: يا إلهي جريمة قتل بشعة، ذلك الفتى المسكين مات مغدوراً، وذلك القاتل"20 وهنا عالجت سامية غشير قضية الإجرام، والظلم. وغالبا ما يكون الشارع الفضاء الأكثر ملائمة لحدوث العنف لأنه يجمع بين مختلف الشخصيات، وحتى الأصدقاء في هذا الفضاء أحيانا تنتهي علاقتهم على وقع جريمة قتل. ورغم أن

"إسحاق" بادر بفعل الخير بالنهي عن العنف إلا أنه وقع ضحيته حيث نُسبت إليه جريمة القتل، وبهذا أصبحت الحياة بالنسبة له لا معنى لها فاختر الهروب من السجن ثم الهروب من الحياة، ولم يستجب لنداء أمه فانتحر وبذلك تعددت المأساة.

عنف البحر: كان للبحر عنفه ضد الإنسان في قصة "أحلام تنوح في ضبابية الوجع"، من خلال ظاهرة الهجرة غير الشرعية حيث تحترق الحياة في حزن الماء وترتوي أجساد الشباب لتعانق الموت تاركة وراءها أحلاماً وأوهاماً، تقول الكاتبة: "كم أنت ساخر أيها البحر؟ كم أنت مجرم؟ قتلت هذه الأرواح السخية قبل أن تتورّد حمرة فرحتها في حدائق العمر.

ابتسم البحر في سخرية جامحة قائلاً: هذا أنا، أملك مصباح الأمنيات والرغبات متعتي أن أنتشي على جثت المساكين أرتشف من ثغره سماً لذيذاً"21 فالبحر رمز جمال الطبيعة وملجأ الناس للبحث عن سعادتهم أصبح مكاناً سردياً لمأساة الحلم المفقود وفضاء لحكي يؤرخ لما هو واقع.

إن معالجة قضايا المجتمع بصورة رمزية يفتح أمام القارئ مجالات متعددة لتأخذ المأساة بعداً رمزياً، ممّا يعزّز ما يقال عن العمل الأدبي، حيث "يكفي أن يقول الأديب كلماته حتى يكون لها من الفعل بالنفوس ومن تحريك الأرواح ما يفوق أثره كل قوة؛ ذلك أن فعلها لا يقتصر على جماعة من الناس في وقت من الأوقات، ولكنه من الممكن أن يمتد إلى كل إنسان في كل زمان ومكان".22 وهذا ما نجده في "حواس زهرة نائمة" لأن الكاتبة عالجت عدة قضايا إنسانية.

من خلال ما سبق يمكن القول أن المجموعة القصصية "حواس زهرة نائمة" ذات بعد مأسوي، فلغة الكاتبة طغت عليها مشاعر الانكسار، والإخفاق، والعنف، فالمأساة تعددت جوانبها إذا كانت مأساة أشخاص

ترمز لمأساة أخلاقية واجتماعية. وقد تجلى الوجد كمأساة من خلال الفضاء القصصي، فالقارئ يواجه لغة الوجد من خلال العتبات والمقاطع السردية. كما تجلى العنف مأساة تهدد صفو الحياة، وقد تقاطعت القصص التي ضمنتها هذه المجموعة في دلالتها فكل قصة تبوح بمأساة مادية أو ومعنوية عبر تيمات مختلفة خاصة واقع المرأة، وأغلب الشخصيات التي لها كان لها طموحا كان مصيرها الاندثار بسبب القهر والاعتراب والموت.

هوامش البحث:

- 1 - هداية مرزق: جماليات القص وإستراتيجية الكتابة قراءة في مجموعة (سهيل الحيرة) لعز الدين جلاوي، مجلة قراءات، مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، جامعة بسكرة، 2011، ص74.
- 2 - بسام موسى قطّوس: سيمياء العنوان، الأردن، ط1، 2001، ص32.
- 3- سامية غشير: حواس زهرة نائمة، المكتبة العربية، للنشر والتوزيع، (د، ط، ت)، ص5.
- 4- المصدر نفسه، ص47.
- 5- المصدر نفسه، ص15.
- 6- المصدر نفسه، ص16.
- 7- المصدر نفسه، ص16.
- 8- سليمان كشلاف: دراسات في القصة الليبية القصيرة، منشورات المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ط1، 1979، ص8.
- 9- سامية غشير: حواس زهرة نائمة، ص21.
- 10- المصدر نفسه، ص41.

- 11- المصدر نفسه، ص54.
- 12 المصدر نفسه ص87.
- 13 المصدر نفسه ص57- ص58.
- 14 المصدر نفسه ص127.
- 15- المصدر نفسه، ص15- ص16.
- 16- المصدر نفسه، ص16.
- 17- المصدر نفسه، ص22.
- 18- الطاهر أحمد مكي: القصة القصيرة دراسات ومختارات، دار المعارف، القاهرة، ط8، 1999، ص98.
- 19- سامية غشير: حواس زهرة نائمة، ص100.
- 20- المصدر نفسه، ص78.
- 21- المصدر نفسه ، ص93.
- 22- عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه دراسة ونقد، دار الفكر العربي، القاهرة، ط9، 2013، ص16.